البيتُ الجديد

خديجة السعدي ❖

كانت أمّي مستاءةً أكثر من عادتها صباحَ ذلك اليوم. لقد هدّها التعبُ الجسديّ والنفسيّ، ولم يعد باستطاعتها السكوتُ على ما نحن فيه من حال مزْرية في هذا البيت البائس الذي نعيش فيه. لقد ضقنا ذرعًا بسقف بيتنا المتداعي وجدرانه المتشقّقة. أنوفنا تعبق برائحة التراب ليلَ نهار. في الشتاء، نعيش في خوف دائم من أن ينهار البيتُ علينا في أيّة لحظة. منذ أشهر وأمّي تفكّر جدّيّاً في الانتقال إلى بيت آخر بعد الفطور قالت لي إنّ لديها بضعَ قطع ذهبيّة سميكة ورثتْها عن أمّها، التي أوصتها قبل أن تموت بأن تدّخرها لأيّام الشدّة.

«إنّها تساوي مبلغًا لا بأس به،» تقول لي. «وبعد بيع بيتنا الحاليّ...»

«إنّه ليس بيتًا،» أقاطعها. «مَن يشترِه يشترِ قطعةَ أرضٍ لا غير.»

تتابع أمّي وتقول إنّ المبلغ الذي سنجمعه من بيع القطع الذهبيّة وقطعة الأرض قد لا يكفينا، لكنّ والدي وعد بأن يجد عملاً إضافيّاً ليساعدها في شراء بيت جديد. وإنْ لم نستطع تأمين كامل المبلغ دفعةً واحدة، فقد نستطيع أن ندفع لصاحب البيت باقي المبلغ فيما بعد. صحيح أنّ البيتَ الذي سنشتريه قديمٌ هو الآخر، كما توضّح أمّي، لكنّه أكبرُ من بيتنا الحاليّ، وفيه غرفتان واسعتان في حال جيّدة، ونستطيع في المستقبل بناءَ غرفٍ أخرى، لتكون لكلّ واحد منّا غرفتُه الخاصّة.

أنا لم أرَ البيتَ الجديد من الداخل بعد، لكن أمّي تقول إنه مقسّم إلى أقسام ثلاثة: الأوّل أرض واسعة مزروعة بالأشجار المثمرة والأزهار، نستطيع أن نزرع فيها بعضَ الفاكهة والخضار أيضًا. إنها تشبه أرضَ الغابة، تقول أمّي، ولا يبدو أنّ يدًا قد امتدّت إليها منذ سنين طويلة. نستطيع أن نبني فيها غرفةً للجلوس ذاتَ موقد حجريّ كبير، ونوقد نارًا كلّ ليلة من أحراش غابتنا الصغيرة وأعوادها اليابسة وثمة حديقة أيضًا. أما القسم الثالث فخلفيّ.

ربّما كانت هذه المرّة الأولى التي تفكّر فيها أمّي جدّيّاً بامتلاك بيت أوسع نستطيع العيشَ فيه بسلام. وإنْ احتجنا إلى مبلغ إضافيّ لإكمال ثمنه، فقد نُضطرّ إلى بيع سجّادتنا الكبيرة وبعض الأثاث. سنقتصد أكثر في مصاريفنا اليوميّة ونتحمّل صعوبات السنة الأولى، لكنّ الخوف من انهيار السقف والجدران سيزول. سنستنشق هواءً نقيّاً، وستكون صحّتنا أحسن بكثير في السنين التالية. وشيئًا فشيئًا ستخلو حديقتُنا من الأوراق اليابسة والأحراش. سنشتري طاولةً وبعضَ الكراسي البلاستيكيّة، وسنجلس في الحديقة كلّ ظهيرة لاحتساء الشاي، وسيأتي الجيرانُ لزيارتنا والجلوس معنا في الحديقة. سيبني والدي ممرّات إسمنتيّةً وسطَ الحديقة، وسنرصف السياجَ بأحواضٍ نملؤها بالأزهار ونباتات الزينة. في سنوات لاحقة، ربّما نضع حوضَ سباحة أو نافورةً في الوسط، ونملأ الحديقة بأقفاص طيور لنستيقظ كلّ صباح على زقزقة العصافير وتغريد البلابل. ورويدًا رويدًا سنشتري أثاثًا فاخرًا ونوسّع المطبخَ والحمّام، ولن نضجر أو نغتمّ بعدها لأنّ بيتنا سيكون جميلاً.

«وماذا عن القسم الخلفيّ من البيت؟» أسأل أمّي

«القسم الخلفيّ هو الجزءُ المُهمَل تمامًا. أعتقد أنّ أحدًا لم يدخله منذ سنين. سنرى وقتها ما نفعل به.»

لا أستطيع صبرًا، وأقرّر أن أكتشف بنفسي. سمعتُ مرّة من الجيران أنّ رائحة المكان عفنة، وأنّ أحدًا لا يودّ الاقترابَ منه خوفًا أو قرفًا. بقيتُ أفكّر أيّامًا عدّةً في المكان المُظلم وما قد يخبّئ. إلى أن جاء يوم ربيعيّ مشمس غيّر كلّ شيء. إذ قبل أن يستيقظ الجميع، نهضتُ وتوجّهتُ إلى القسم الخلفيّ من بيتنا الجديد. تقدّمتُ بخطوات وئيدة وفتحتُ الباب بحذر

❖ ❖ ❖

❖ ـ شاعرة وصحفيّة عراقيّة صدر لها مجموعة شعريّة بعنوان **أزهار الفجر** ومجموعة قصصيّة بعنوان **قصص صغيرة**

كان هناك ما يشبه قاعةً كبيرةً مستطيلةَ الشكل ذاتَ أرض إسمنتيّة وسقف عالٍ جدّاً. على طول القاعة من جهة اليسار، يوجد مقعد حجريّ عريض يمكن الجلوسُ أو النوم عليه. لكنّ رائحةَ الرطوبة والعفن القادمة من الجهة المقابلة للباب تمنع الآخرين من الاقتراب. غطّيتُ فمي وأنفي بيدي وتقدّمت أدمعتْ عيناي فأغلقتُهما، ثمّ فتحتهما جزئيّاً لأرى أمامي في الجهة المقابلة للباب، وقع نظري على ما يشبه علّيّة واسعة. أرعبتني الرؤية

كانت العليّة أشبهَ بغابة تمتلئ بأنواع المخلوقات الحيّة: عناكب وحشرات وزواحف وفئران وقطط وكلاب وطيور مختلفة. ما أدهشني أكثر كان رؤيتها وهي تتراكض، لكنْ من دون أن تحاول النزول إلى القاعة. بقيتْ عيناي تحدّقان في هذا المنظر المرعب والمدهش في آن. كانت الجدران والسقف مكسوّةً بمزيج من الأسود والأخضر، والأرضيّة بالطحالب والعفن. كادت الروائح أن تخنقني، لكنّي قاومتُ وبقيت دقائق أخرى أشاهد ما يدور. كيف تتآلف هذه المخلوقات في هذا الجُحر الحيوانياتيّ؟ كيف تكاثرتْ، ومنذ متى؟ مَن يا ترى هيّأ هذا المكان على هذا النحو؟ لم أكن لأعثر، بالطبع، على أيّة أجوبة.

قبل أن أغادر المكان، بدأ شيء ما له قامةُ إنسان صغير بالتحرّك. قرّرتُ أن أبقى لأكتشف ماهيّة هذا الشيء. وبعد قليل ظهرتْ أمام عينيّ طفلةٌ في التاسعة أو العاشرة. أزاحت عنها الطحالبَ والعفن ونهضتْ واقفةً، ثم قفزتْ إلى أرض القاعة وتقدّمتْ باتجاهي. تملّكني الخوف بداية الأمر، لكنّي ثبتُّ مكاني حين رأيتُ ابتسامتها الساحرة.

«ماذا تفعلين هنا؟» سألتُها.

«لا أدري،» قالت والابتسامةُ لا تفارق ثغرَها الجميل. «لكنْ يبدو أنّي موجودة هنا منذ الأزل، وقد حان الوقتُ لأخرج إلى عالم النور.»

❖ ❖ ❖

ماتت أمّي واضطُررنا إلى بيع ذهبها لتغطية مصاريف الدفن والجنازة. ما زلنا نسكن في بيتنا المتهدّم ومازالت الطفلة ـ الطيف تسكن في علّيّة البيت الذي اشتراه آخرون ولم يكترثوا لفتح قسمه الخلفيّ.

بغداد